جامعة ابي بكر بلقايد – تلمسان -

كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية

شعبة: الجذع المشترك علوم اجتماعية

**دروس الدعم الالكتروني**

**لطلبة السنة الأولى جذع مشترك – علوم اجتماعية –**

**الخاصة بشهر ابريل 2020**

المقياس: تاريخ الجزائر الثقافي

أستاذ المادة:

. د. مدان محمد

**المحاضرة الثالثة**

**طبيعة التشكيلات السياسية في المغرب الأوسط في القرون الوسطى :**

ان التنظيم السياسي في المغرب الأوسط في العصر الوسيط , اثار و مزال مناقشات عديدة فبالنسبة للمؤرخين الاستعماريين يجب ان لا نتحدث عن تنظيم بل فوضى . حيث لم يكن التاريخ السياسي للمغرب الا تعاقب طويل لصراعات غامضة بين القبائل التي اعاقت إقامة حكم سياسي مركزي تابع للدولة . هذا التفسير لا يأخذ بعين الاعتبار وجود الممالك و الامبراطوريات خلال هذه الحقبة , التي عرفت حياة ثابتة خلال عشرات السنين .

لكي نفهم الحياة و البنيات السياسية في المغرب في العصر الوسيط يجب الا نسقط المعايير المستعملة لتحديدي التكوينات السياسية الحالية للدول . لأنه اذا اعتمدنا المعايير الحالية لتحليل الحياة السياسية في الدولة ضمن ارض محددة مستقرة و عاصمتها ثابتة تخضع لإدارة مركزية في تسيير الإقليم , لوجدنا لأول وهلة ان تاريخ المغرب الأوسط معقد فعلا . لان الدولة هي أولا و قبل أي شيء : " منتوج تاريخي لتعميق عملية التقسيم الاجتماعي للعمل المعبر عنه , من خلال التبادلات بين مختلف الشرائح الاجتماعية " الشيء الذي كان معدوما بالنسبة للمجتمع في المغرب الأوسط خلال تلك الفترة , كما ان الفائض الذي يمكن من إعادة انتاج الدولة المغربية كان دائما مصدره خارجي .

لهذا فبدل التحدث عن إقليم متجانس , يجدر بنا في الاغلب , التحدث عن مناطق ذات تأثيرات دينية و عسكرية و مالية غير مستقرة كليا . و من غير الممكن في حالة المغرب الوسط ان تأخذ مركزا حكوميا ثابتا كنقطة استدلال , لان كل الحقبة الوسيطة , كانت متميزة بحركة تناقضية مزدوجة نابذة و جذابة نحو المغرب الأقصى و المغرب الأدنى : - في بعض الأحيان يكون مركز الثقل السياسي في المغرب الأوسط و يتوسع نحو المغرب و تونس , مثلما هو الحال مع الرستميين , الفاطميين , الحماديين , الزيريين , الزيانيين .

في أحيان أخرى تكون نقطة الارتكاز في المغرب الأقصى او تونس و ينضم اليها المغرب الوسط او جزء منه , كما هو الحال مع الاغالبة , و المرابطين و الموحدين و المرينيين و الحفصيين .

الشيء الذي يفسر كون المدن التي أصبحت على التوالي عواصم لمختلف التشكيلات السياسية , لم تصبح كذلك بفعل الصدفة , بل ظهورها ناتج عن حاجة المركز السياسي الى التحرك من مركز الثقل الى منطقة نفوذه التجاري و القبلي . أي كل كيان سياسي , يجب ان يتمركز في منطقة نفوذ القبائل التي حملت لواء تأسيسه , ثم يتوسع الى مناطق النفوذ التجارية , متمترسا دائما خلف شعارات دينية .

انطلاقا من هذه المعطيات , يمكن اعتبار وجود تكوينات حكومية في المغرب قائم على ترابط ثلاثة عناصر :

**العصبية القبلية :**

**-**نظرا للبنية الاجتماعية للشعوب المغربية على التنظيم القبلي , و الذي لم يتطور الى نظام اسمى – نظرا لظروف تاريخية و موضوعية سبق ذكرها – فان التنظيم القبلي يمثل الدور المحرك في كل مؤسسات البناء الحكومي .

- و شجع هذا الامر , كون الأغلبية الساحقة من التشكيلات السياسية التي ظهرت في المغرب كان انطلاقها من مركز ثقل قبلي رعوي , لما للقوى الرعوية البدوية من قوة عسكرية تفرضها حياة الترحال و سيطرتهم على تربية الخيول و اعداد الفرسان لمواجهة المخاطر المحدقة بهم :

- علي سبيل المثال نذكر , ان تأسيس الدولة الرستمية تم بفضل قبائل زناته البدوية التي كانت تسيطر على الجنوب الغربي للمغرب الوسط و الجنوب الشرقي للمغرب الأقصى .

- الدولة الفاطمية , فقد كان انطلاقها تحت لواء قبيلة كتامة الجبلية التي تتمركز في مثلث ( جيجل , سطيف , قسنطينة )

- الدولة المرابطية اختضت دعوتها قبائل لمتونه الرعوية بالأطلس الصحراوي بالمغرب الأقصى.

- الدولة الموحدية قامت على يد قبائل مصمودة الصحراوية بالمغرب الأقصى .

- الدولة الزيانية فقد اسستها قبيلة بني عبد الواد فرع قبيلة زناتة.

ان هذا الحضور العام للتنظيم القبلي وراء عملية البناء السياسي يدل على ان القبيلة و الدولة بالرغم من تناقضهما ليستا متنافيتين . حيث ان : " التنظيم القبيلي على مستوى معين من تطوره يحمل مشروعا حكوميا "

هذا المشروع الحكومي تفسره سيطرة القبيلة في قالب التجديد الديني .

**الاشعاع الديني :**

ان منطقة المغرب كما سلف الذكر كانت منطقة جذب و مسرحا خصبا لمختلف الفرق الإسلامية , التي وجدت المجال واسعا لنشر افكارها بعيدا عن مراقبة السلطة المركزية في المشرق. كما وجدتها شعوب المنطقة فرصة للاستقلال عن الخلافة , في العهدين الاموي و العباسي التي كانت تسيطر عليها الأرستقراطية القرشية .

و سهولة اعتناق سكان المغرب لهذه المذاهب و الردة عنها يدل على ان انضواءهم تحت هذه الطوائف الدينية , كان انضواءا سياسيا و ليس عقائديا.

و الحقيقة , انه ليس معارضة الارستقراطية القريشية هي وحدها التي حرضت البربر على احتضان هذه المذاهب الدينية . و انما حاجة المركز السياسي القبلي – الذي يحاول في مرحلة من مراحل حكمه , تأسيس نظام سياسي ما فوق قبلي – الى الغطاء الديني لكي يستر منطلقاته القبلية و يسهل التغلغل و يسهل التغلغل و التحالف مع القبائل الأخرى . ياكد هذا عبد الرحمان ابن خلدون : " ان الصبغة الدينية تذهب بالتنافس و التحاسد الذي في اهل العصبية و تفرد الوجهة الى الحق ... لم يقف لهم شيء لان الوجهة واحدة و المطلوب متساوي عندهم "

الشيء الذي يفسر لماذا تأسست كل التشكيلات السياسية المهمة التي عرفتها منطقة المغرب تحت شعارات دينية :

- فإمامةتيهرت انضوت تحت لواء المذهب الخارجي الذي يعتبر الحكم شوري بين عامة المسلمين مهما كانت اعراقهم و لغاتهم . الامر الذي حول تيهرت الى عاصمة عالمية للمذهب الخارجي . بهذا كانت مبعث اشعاع هام و كانت توجه نشاط الطوائف الخارجية المختلفة

- قامت الدولة الفاطمية بفضل المذهب الشيعي ( الإسماعيلي) الذي يعتقد بأحقية اهل البيت في خلافة المسلمين . و تعتبر طاعة ولي الامر حسب هذا المذهب من اركان الإسلام الأساسية : " ان اركان الإسلام عند الإسماعيلية سبعة و في مقدمتها ولاية الامام و طاعته , قال المجدوع : " بني الإسلام على سبع دعائم الولاية و افضلها , و الطهارة و الصلاة و الزكاة و صوم رمضان و الحج الى بيت الله الحرام. و الجهاد في سبيل الله "

- اما المرابطون فرفعوا شعار المذهب المالكي لتبرير مشروعيتهم .

- قامت الدولة الموحدية على المذهب الاشعري و اعلان المهدي بن تومرت حربا شعواء على مفاهيم الفقه المجسمة السائدة.

الملاحظ كذلك ان القبائل البربرية كانت تتسبب بعد اسلامها الى العرب, فاصطنعت انساب عربية حتى تتساوى مع القبائل العربية و تستطيع المشاركة في الحياة السياسية.لأنه لا بد من استناد خلافتهم الى الأسس الشرعية اللازمة كالنسب النبوي او الأصل العربي. لهذا قالوا بانتماء كل من المهدي بن تومرت و خليفته عبد المومن بن علي الى الرسول ﷺ عن طريق الادارسة . و اتخذ الموحدون اللون الأخضر شعارا لهم كي يظهروا ميلهم الى الدعوة العلوية و لا يشذ بن مرين بن عبد الواد عن هذه القاعدة في اتخاذهم لانساب عربية و من ﺁل البيت بالضبط .

و يتجلى من هذا , ان الأرستقراطية القبلية , تستعمل العنصر الديني و الانتساب الى ﺁل البيت لبناء مشروع حكومي ما فوق قبلي لان الدولة المحرمة من امتيازها الديني و من قاعدة اجتماعية ترتكز عليها سلطتها, لا تكون في الجوهر الا ارستقراطية – قبلية مثل سواها, و يمكن ان تحل محلها ارستقراطية قبلية أخرى.

الا انه في حقبة التوسع العسكري و التجاري , تمثل الإيديولوجيا الدينية قوة متجانسة تسمح بتوحيد علاقات اجتماعية غير متجانسة في اطار الدولة الثيوقراطية المسيطرة.

اما في حقبة الانكماش و الانطواء فان الأيديولوجية الدينية تفقد فعاليتها الموحدة و تصبح هي نفسها عاملا للتجزئة.

**القوة المالية :**

اذا كانت دولة المعاصرة هي منتوج تاريخي لتعميق عملية التقسيم الاجتماعي للعمل المعبر عنه من خلال التبادل بين مختلف الطبقات الاجتماعية. أي ان الفائض الاقتصادي الذي يساهم في إعادة انتاج الدولة, يكون مصدره داخلي عن طريق تراكم الإنتاج و الضرائب. فان تراكم الثروة في كل التشكيلات السياسية التي عرفتها المغرب خلال القرون الوسطى , مصدر غير انتاجي. أي بفضل التجارة و الادهى من ذلك , ان مصدر هذه الثروة كان خارجيا في الأساس عن طريق تجارة القوافل و بالسيطرة عن طريق الذهب خاصة. و يؤكد هذا اندري نوشي وايف لا كوست بقولهما: " سيطر الغرب الغربي على طريق الذهب السوداني , زمنا طويلا. الينبوع الأساسي للمعادن النفسية بالنسبة للعالم القر وسطي كله... ان هذا الحدث الأساسي من تاريخ المغرب الذي تساوي أهميته ندفق المعادن النفيسة الامريكية على شبه الجزيرة الاسبانية "

هذا يعني ان القوة المالية. المحرك الأساسي لاي مشروع حكومي. مصدرها السيطرة على طرق تجارة الذهب:

-كانت الدولة الرستمية تراقب طريق الذهب بواسطة امارات صغيرة ومدن الخوارج القائمة في الصحراء خاصة سجلماسةو سدراته و نفوسة

-و ليس صدفة ان تولد الإمبراطورية الفاطمية بالاستيلاء على سجلماسة التي كاد المهدي عبد الله ان يؤسر فيها من طرف الخوارج. هذا الحادث يؤكد ان الفطميين كانوا يراقبون هذا المركز الرئيسي لتجارة القوافل.

-نجد سناريو مماثل في اصل الإمبراطورية المرابطية, حيث قبل الانطلاق نحو المغرب العربي و اسبانيا, كان المرابطون يصنعون أدوات قوتهم في افريقيا. بفضل قبائل لمتونه احدى قبائل صنهاجة الضاربة في اتجاه الجنوب حتى بلاد السنغال, و مسيطرة على قبائل الصحراء. و بذلك اصبحوا يسيطرون على قسم كبير من تجارة الذهب.

- العملية نفسها تدخل في تكوين الإمبراطورية الموحدية, اذ بدا الموحدون أولا بمراقبة طريق سجلماسة قبل ان ينطلقوا في الهجوم على امبراطورية المرابطين, لكن هذا المصدر يعتبر غير مضمون لان تتحكم فيه عوامل خارجية مرتبطة بميزان القوى في المنطقة, الشيء الذي جعل هذه التشكيلات السياسية هشة. لأنها معدومة الموارد الداخلية المبنية على الإنتاج و تراكم الثروة. و بالتالي فان تجارة الذهب كانت مصدر قوة لهذه الحكومات و مصدر ضعف في نفس الوقت:

- مصدر قوة لأنه عندما تكون متحكمة في طريق الذهب, تعيش في بحبوحة مالية, مما يساعدها على التوسع بفضل القيام بتحالفات مع مختلف القبائل .

- مصدر ضعف ,لأنه عندما تفلت منها السيطرة على تجارة القوافل, تقل الموارد المالية و تلجا الى فرض ضرائب باهضة على القبائل مما يجعلها تدخل في صدامات معها و هذا ما يؤدي الى انهيار هذه الدول.

- لكن التساؤل الذي يطرح نفسه بإلحاح هو, ما هي الالية التي تسير بها السلطة السياسية سواءا في علاقاتها مع الدين او مع العصبية ؟

يبدو ان هذه التنظيمات الحكومية تسيرها حركة دائرية متمثلة في اشراك ثلاثة أنواع من السلط: السلطة القبلية و السلطة الدينية و سلطة الدولة. و تظهر هذه السلطات الثلاث واضحة في الدولة الموحدية:

- بيت المهدي يمثل منبت الدولة

- مجلس الخميسن يمثل استمرارية السلطة

- جمهور الفقهاء, يمثل السلطة الدينية.

و في هذا المجال يقول كارل بروكلمان: " لقد جمع المهدي بوصفه اماما و مهديا مجلسا. يتألف من مؤيديه العشرة السابقين الى قبول دعوته, و هم المسمون بالجماعة, ليضيف اليهم مجلسا اخر ينتظم خمسون مندوبا عن مختلف القبائل البربرية"

ونلاحظ انه في بداية التأسيس لهذه التنظيمات الاجتماعية. تعمل هذه السلطات الثلاث بتجانس فيما بينها، حيث تتكفل القبائل بالجانب الحربي والمالي، بينما يمثل الفقهاء الجانب الأيديولوجي، اما السلطة المركزية فتتولى عملة التنسيق فيما بينها.

وبعد توطيد الدولة نلاحظ الميل الى الاستقلال الذاتي لسلطة الدولة على السلطتين القبلية والدينية، بالاتجاه لإلغاء هاتين السلطتين،وذلكبتأسيس حكم وراثي يتداول بين افراد الاسرة الحاكمة.

الا ان هذه العملية الاستقلالية ستحبط- مع انها وصلت مع الموحدين الى درجة أكثر بعدا من أي وقت اخر- الانها تصطدم في كل مرة باستحالة تنظيم جيش او إيجاد مال مستقل عن التنظيم القبلي، الذي يشكل عنصرا جوهريا في تنظيم الدولة.

كما ان الدولة المحرومة من امتيازها الديني ومن قاعدة اجتماعية ترتكز عليها سلطتها لا تكون في الجوهر، سوى ارستقراطية قبلية.